التعليم النسوي الإسلامي... كيف يُبنى؟

د. الشيخ محمد شقير*

تنامت في الفترة الأخيرة ظاهرة التعليم النسوي الإسلامي، وعُمل على تقديم المعارف الإسلامية للمجتمع النسوي من خلال أشكال متعددة، أهمّها وجود معاهد متخصّصة تُعنى بتقديم تلك المعارف، ضمن مناهج وبرامج ومقرّرات، تختلف بشكل جزئي بين معهد وآخر، أو بين بلد وآخر.

وقبل الحديث عن مناهج أو مقررات، من الضروري بناء الرؤية التي تقوم عليها تلك المناهج والمقررات؛ فهي البنية التحتية التي يُعتمد عليها في بناء المناهج التعليمية والتربوية واختيار المواد المناسبة، وإعطاء الأولوية لحقول معرفية معيّنة دون سواها. وكلّما كانت هذه الرؤية محكمة وواضحة، كلّما كان البناء عليها أكثر اتقاناً وانسجاماً، مع غاياتها وأهدافها.

وما يؤكّد ضرورة العناية بهذه الرؤية، أنّ الكثير من اللواتي يتلقّين التعليم النسوي الإسلامي يحملن مسؤوليات بيتية وأسرية، وبالتالي فإنّ الوقت الذي يعطينه هو وقت محدود وثمين– وكل وقت ثمين– وينبغي أن يُصرف بشكل مدروس، وبعناية مركّزة، وبناء على تخطيط مستديم للعملية التعليمية والتربوية؛ حتّى توصل إلى أهدافها بشكل أيسر وأفضل.

إنّ الرؤية التربوية والتعليمية فيما يرتبط بالتعليم النسوي الإسلامي، يجب أن تقوم على الأسس التالية:

1– إنّ المرأة هي إنسان أولاً، فينبغي أن نسأل ماذا يريد الإسلام للإنسان، بلحاظ إنسانيته، وتكوينه الروحي والمعنوي، والذي يستوي فيه كلّ من المرأة والرجل؟

2– في المرتبة الثانية، يُطرح السؤال الآتي: ماذا يريد الإسلام من المرأة، بما لديها من خصوصّيات وتمايز في بنيتها الجسدية، والنفسية، وفي انعكاس تلك الخصوصيات، وذلك التمايز على المستوى العملي؟

---

* أستاذ في الحوزة العلمية، وأستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

3- إنّ التمايز بين المرأة والرجل هو تمايزٌ وظيفيٌ. فالرجل له خصوصية في طبيعة الأعمال التي يقوم بها، والمرأة لها خصوصيتها أيضاً، بطريقة يحصل فيها التكامل الوظيفي، دون إغفال لوجود مساحة وظيفية مشتركة بينهما.

4- إنّ منظومة الوظائف التي تنبثق من كون المرأة إنساناً، ومن خصوصيتها كامرأة- سواء كانت زوجة أو مدبّرة منزل أو أماً أو مربية- يجب أن يقوم على أساس من العلم والتربية، باعتبار أنّ الإسلام قد عُني كثيراً بتلك الوظائف، وأوجد كافة المفاهيم والقيم، التي تساعد على صناعتها.

5- إنّ ميادين تلك الوظائف سواء ما يرتبط بالنفس الإنسانية وتزكيتها، أو ما يرتبط بالحياة الزوجية والأسرية والتدبير المنزلي، تحتاج إلى ثقافة واعية وواسعة، وإلى تربية مستديمة، وصناعة علمية هادفة. ولن يكون صحيحاً أن تبادر المرأة إلى العمل فيها بشكل تلقائي، أو بناءً لثقافة سائدة، قد يمتزج فيها الصحيح بالسقيم، ومن دون إعمال النظر فيها، وفي جميع معطياتها، بهدف تصفيتها من الشوائب.

6- ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار الأولوية الوظيفية؛ فقد يكون الجمع بين وظائف متعددة ممكناً، لكن لا تكون بدرجة واحدة في سلّم الأولويات. فإذا ما أريد بناء الرؤية التي تقوم عليها المناهج التعليمية والتربوية، لا بدّ أن يكون سلّم الأولويات الوظيفية، ومدى اختلاف الأهمية بين الوظائف، على درجة عالية من الوضوح.

7- ينبغي أيضاً أن تلحظ العمومية الوظيفية في صناعة الرؤية، فمن الممكن أن تكون هناك إمكانية لوظائف وأعمال يقوم بها أفراد المجتمع النسوي، وتكون على قدر من الأهمية لكن من الواضح أنّ الأعم الأغلب من النساء يتجهن إلى ميادين ترتبط بالحياة الزوجية والأسرية والأمومة والتربية وحسن التدبير المنزلي.

8- مما يجب الالتفات إليه في صناعة تلك الرؤية، ضرورة الاهتمام بالإشباع الثقافي والتربوي والصحي للحاجات العملية والوظائف المناطة بالمرأة. والحذر من الجنوح إلى مجالات تعليمية أو مقررات أو اهتمامات مجانبة لما تحتاجه المرأة، ممّا يدخل في خانة الترف العلمي، وقد يترتّب عليه نتائج سلبية سواء على المستوى التربوي أو غيره.

بناء على ما تقدم، يمكن القول إنّ تلك الرؤية تتضمن تلبية الحاجات العلمية والتربوية لمنظومة الوظائف التي تنسجم مع إنسانية المرأة، وصناعتها لنفسها، وخصوصياتّها الأنثوية– سواء على المستوى البدني أو النفسي– وما يترتّب على هذه الخصوصيّات من مهام ووظائف، تحتاج إلى بناء وعي إسلامي أصيل، يلبّي الحاجات العلمية والابتلائية، ويبتعد عن الترف العلمي، ويشكّل أولوية وظيفية بالنسبة إليها، دون الجنوح إلى اهتمامات وظيفية غير أساسية، قد تعني دائرة محدودة أو ضيقة من ذلك المجتمع. كما ينبغي الإلفات إلى أنّ تلك الرؤية هي الرؤية التي نلمس توجيهاً دينياً إليها وتأكيداً نصياً إسلامياً على العناية بها، وهو ما يرتبط بالمجالات التالية:

أولاً: العلاقة مع اللّه تعالى: وهي الأساس في تلك الرؤية، والتي تتطلب العناية بالأخلاق الإلهية(أي أخلاق العلاقة مع اللّه تعالى)، من حب اللّه تعالى، والثقة به، والرضا بقضائه وقدره، وغيرها من العناوين ذات الصلة، فضلاً عن بعض الموضوعات الفقهية (فقه الأحكام)، التي ترتبط بالجانب العبادي(فقه العبادات)، بالإضافة إلى الموضوعات التي تعنى بمعرفة اللّه تعالى والتقرّب منه.

ثانياً: النفس وتزكيتها: إنّ مجمل ما يهدف إليه الدين يترتب على صلاح النفس وتزكيتها، وهذا يتطلب العناية بالأخلاق والتزكية، وتطهير القلب من الرذائل، كالتكبّر والعجب. وتحليته بالأخلاق الطيبة، وهو ما يستلزم الاهتمام بموضوعات لها علاقة بمجمل علوم الأخلاق وعلم النفس الديني وغيره.

ثالثاً: التعرف على الإسلام: سواء ما يرتبط بأصول الدين، وموضوعات كلامية مختارة، أو ما يرتبط بعلوم القرآن، وعلم الحديث، والتاريخ الإسلامي، وسير الائمة الأطهار (عليهم السلام)، وغيرها من الموضوعات، التي تتيح امتلاك معرفة شاملة، بمجمل العلوم الإسلامية.

رابعاً: العلاقة الزوجية: والتي هي جهاد المرأة، وتعدّ من الأولويات في تلك الرؤية، وهي تقود إلى الاهتمام بالجانب الأخلاقي، بما يشتمل من عناوين ترفد الحياة الزوجية، وتساعد في بناء علاقة طيّبة وسعيدة، بالإضافة إلى جملة من المفاهيم الثقافية ذات الصلة، والعناوين الفقهية، التي تُدرج تحت عنوان فقه العلاقة الزوجية.

خامساً: الحياة الأسرية: وذلك لما لها من أهمية خاصة في الرؤية الإسلامية؛ فهي تتطلّب عناية تعليمية وتربوية خاصة، وذلك عبر رفدها بمجمل المعطيات الأخلاقية والمفهومية والفقهية، التي تسهم في الحفاظ على العلاقات الأسرية، وتحصينها من العوامل المرضية التي تضعفها، وبالتالي تضعّف المجتمع؛ لأنّ الأسرة هي اللبنة الأساس في تكوينه.

سادساً: العناية بالأبناء: وذلك في مختلف مجالات التربية الدينية والصحية والمدرسية والنفسية والاجتماعية، والتي تندرج في إطار الاهتمام الخاص الذي يوليه الإسلام للتربية، فيقع على عاتق الوالدين عامة، والأم خاصة، تحصيل هذه المعارف بهدف إيصالها إلى الأولاد؛ فهي تحتاج إلى تعلّم خاص وثقافة هادفة لا تتأتّيان من تلقائية التعلّم الاجتماعي وعفويته.

سابعاً: حسن التدبير المنزلي: والذي يُعنى بجودة الأعمال البيتية وحسن تدبيرها، وهي أعمال ملقاة بشكل أساس على عاتق المرأة، وتحتاج في العديد من عناوينها إلى التعلّم، وتحصيل ثقافة أعلى، وتكوين مهارات أفضل؛ لتكون النتائج أحسن، وتؤدّي فوائدها الإيجابية على المستوى الأسري.

ثامناً: الفكر النسوي: ويتضمّن مجمل المفاهيم والقضايا التي ترتبط بالمرأة من علم كلام نسوي؛ يعنى بدفع الانتقادات التي توجه المرأة في الإسلام، إلى الثقافة النسوية التي تعالج مختلف المفاهيم التي ترتبط بالمرأة في الرؤية الإسلامية، إلى فقه المرأة (أحكام المرأة في الشريعة الإسلامية)، إلى أحكام العلاقة بين المرأة والرجل، وصولاً إلى معاينة موضوع المرأة في تفسير القرآن وأحاديث أهل البيت(عليهم السلام).

وهنا ينبغي الالتفات إلى ما يلي:

1- إنّ ما قدمناه هو مجرد رؤية أولية، تقوم على مجموعة من الأسس، وتترتبّ عليها نتائجها، من تحديد للمجالات التعليمية والتربوية التي تنسجم معها.

2- في خطوة لاحقة ينبغي الذهاب إلى صناعة المناهج التعليمية والتربوية، وفقاً للمجالات التي تمّ تحديدها، وبما يتماهى مع الرؤية وأسسها.

3- إنّ اعتماد أية مناهج تربوية وعلمية، إذا لم يكن قائماً على رؤية واضحة وصائبة وأصيلة، سيؤدي إلى الكثير من تضييع الجهود والأوقات وسائر الطاقات.

4- إنّ أي خلل في صناعة المناهج سيؤدّي إلى خلل في الممارسة العملية، وفي الثقافة المعتمدة لدى أفراد المجتمع النسوي، مما يترتب عليه الكثير من النتائج السلبية على أكثر من مستوى.

5- إنّ نظرة فاحصة إلى مجمل المناهج التعليمية والتربوية التي تعتمد في التعليم النسوي الإسلامي، تُبيّن أنها مناهج نمطية إلى حدّ بعيد، وأنّها تفتقد إلى الرؤية الصحيحة؛ ولذلك هي تتحمّل المسؤولية عن العديد من المفردات الثقافية الخاطئة في مجتمعاتنا.

6- من أجل تطوير المناهج أو تغييرها، ينبغي تجاوز النمطيات المنهجية الموجودة؛ لأنّ التقليد غير الواعي لما هو سائد، قد يعطّل عملية تطوير المناهج والأخذ بها إلى ما هو أفضل.

7- ينبغي تجاوز العقد الاجتماعية المؤثرة في المناهج التعليمية والتربوية، بما فيها عقدة الذكورية؛ لأنّها تساهم في انحراف الصناعة المنهجية عن مسارها الصحيح وأهدافها المنشودة.

8- المطلوب في الصناعة المنهجية التأصيل وليس التوفيق؛ أي تأصيل المناهج من خلال النصّ الديني وليس مراكمة المناهج؛ لأنّها تؤدي إلى إرهاق المتعلّم وإثقاله.

وأخيراً، يمكن القول إنّه بالإضافة إلى ما ذكرنا من معالجة نظرية للرؤية التعليمية والتربوية، فقد تمّ تجريب العديد من المناهج التعليمية والتربوية في المعاهد التعليمية النسوية، وأصبح بالإمكان إجراء دراسات ميدانية بهدف تقويم تلك المناهج. ولذلك سيكون من المطلوب الإسراع في إجراء مراجعة شاملة لجميع تلك المناهج بهدف تغيير ما يجب تغييره- من خلال إزالة العيوب وإضافة ما سقط لخلل في الرؤية أو في تطبيقها- في صناعة تؤسس لمرحلة جديدة من التعليم النسوي الإسلامي في أصالته وحداثته معاً.

نوافذ:

الوقت الذي تعطيه المرأة المتزوجة هو وقت ثمين، ينبغي أن يصرف بشكلّ مدروس وبعناية مركزة

إنّ التمايز بين المرأة والرجل هو تمايز وظيفي

المطلوب هو تأصيل المناهج من خلال النصّ الديني وليس مراكمتها